فيصل درّاج*

عودة الفلسطيني بين الوهم والمتخيل

يتسم قدر الفلسطينيين باختلافه عن غيره، وباختلافه أكثر عمّا يجب أن يكون. فإذا كان جميع البشر يُعرّفون بأوطانهم، فإن الفلسطينيين يُعرّفون بإخراجهم منه، وبانتقالهم المأسوي من صفة المواطن التي تلازم إنساناً له حقوق وواجبات، إلى وضع اللاجئ الذي أُهدرت حقوقه، وفُرضت عليه واجبات.

ليس في أقدار الفلسطينيين ما يشبه أقدار الآخرين، وليس فيها مكان لما يمكن أن يكون. فهوية البشر تأتي من أوطانهم التي تُلزمهم بعيش مشترك، وهوية الفلسطينيين صدرت عن إخراجهم من وطنهم، وتحويل عيشهم المشترك إلى حكاية قديمة. فما تسمح به الأوطان لا تقبل به المنافي، وما تطمئن إليه ذاكرة مستقرة يغاير ذاكرة مُنع منها حق الموافقة والقبول.

تتكون الذاكرة ـ الهوية بمواجهة ما يهددها، بخارج معادٍ واضح العناصر، والذاكرة الفلسطينية الحديثة تكونت، وما زالت تتكون بمواجهة خارج مهدِّد يصادر الوطن ويسبب عذابات المنفى، وصعوبات الطريق الممتدة من الوطن إلى المنفى. والمحصلة وجود فلسطيني تسكنه مفارقة، تمنع منه الوحدة والاستقرار. فالفلسطيني مخلوق طارئ أصله من فلسطين، وهو اللاجئ الذي سقط على بلد لم يتوقعه وقَبِل به على مضض، وهو الغريب الذي يثير الريبة ولا تُعرف مقاصده، والوافد بلا دعوة، والضيف الذي عبث بآداب الضيافة، وهو، أيضاً، الفدائي الذي يستدعي الخطر، و"الإرهابي المسلح"، وهو الإنسان الذي نتعاطف معه إذا كان بعيداً عنا.

والفلسطيني، كما هو، كيان عاثر الحظ منقسم، وجوده محاصر بمفارقات غريبة. خرج من وطنه على غير رغبة منه وأسبغ عليه آخرون صفة الجبان الهارب، أو الذي باع أرضه، كما قيل أكثر من مرة. وهو المتهم، المرفوض إن لم يقاتل كي يعود إلى أرضه، والمتهم أكثر إن قاتل كي يعود إليها. وهو زوائد بشرية لا تاريخ لها، كما صرّح مسؤول عربي ذات مرة، يدّعي الفقر وله "أكثر من قميص"، وكثيراً ما كان قميصه الوحيد، أو الأنيق، سبباً لعقابه.

---

* كاتب وناقد فلسطيني.

أملى عليه وجوده المفارق، في طور من مساره، ضرورة التذكر ومغالبة تيار الزمن والعودة إلى الماضي، لكن مساره عاد وأربك تذكره الذي يقضي بمعرفة أليفة بموضوعات ذاكرته، بسبب منفى أقام بين الفلسطيني وعالمه الأليف مسافة شاسعة. كأن للتذكر الفلسطيني مفارقة خاصة به تستدعيه وتربك صوره في آن، ذلك بأن الماضي لا يراهَن عليه، وله وجوه مرّ عليها النسيان.

احتفظ اللاجئ الفلسطيني، ذات مرة، بذكريات من وطنه، أضيف إليها تذكر وافد من المنفى، اختزنته الروح والعينان، وعاش مع ذاكرة قلقة، منذ أن أخذت به مأساته إلى عوالم آخرين، وأخرجته من صفوفهم، واختلط التاريخ الذي أراده بزمن طارئ سقط عليه "مصادفة" وبدّل حياته. عرف في قدره الغريب الحرمان والاغتراب والشعور بالنقص، وأطراف المدن التي يزهد بها سكانها، ووقف أمام أكثر من مجزرة، وأضاع التذكر وانتقل إلى "المتخيل" الذي لن تغادره المفارقة.

أدرك اللاجئ في غربته المتوالدة دلالة الحكمة القائلة: "تصبح الأشياء أكثر وضوحاً حين تبتعد عن ساحة الرواية"، واستدعى أطياف وطنه المفقود بأشكال متنوعة، بعد أن صحّح، قليلاً، مبدأ الحكمة السابقة، ودخل إلى قول جديد: "تنقلب صور الأشياء إن غابت، وأصبح رجوعها مستحيلاً." أضيف العجز إلى الحرمان، وأفضيا معاً إلى ذاكرة المقهورين التي تخلق قهرها خلقاً جميلاً، خلقاً على غير مثال، كما يقال، كاملاً ويقترب من الفرادة. لذا غدت "أرض البرتقال الحزين" الأكثر جمالاً، وظهرت سهول فلسطين الأكثر خصباً، وأخذ الأجداد صور الأنبياء، وتمكنت "الأرض المقدسة" من قلوب الفلسطينيين، أو بعضهم على الأقل. وكان في متخيلهم الذي داخلته شقوق كثيرة، ما يقول: "لا تقل أخصب الثرى، فهنا أورق الحجر"، وأدمنوا على "عودة روحية" إلى الوطن المغتصب، تلبّي الرغبة ولا تفرض الانتقال.

لازمت المفارقة المتخيل الفلسطيني حين استعاضت عن الأشياء الغائبة بفرادة صفاتها، وخلط هذا المتخيل بين التفاؤل الذي لا يحتاج إلى سبب، ومبدأ الأمل الذي يعرفه المضطهدون جميعاً. وإذا كان الأمل "عملة" مقهورين يحتاجون إليها، حال الفقير الذي يشكو همومه إلى سماء واسعة، وينتظر أن تحنو عليها، فقد كان في "المتخيل اللاجئ" شطط فلسطيني يدعو إلى الكآبة، حال "مسؤولين كبار" قالوا، في ندوة فكرية نظمتها مجلة "شؤون فلسطينية" في سنة ١٩٧٢، إن الفدائيين سيصلون إلى صفد في الربيع المقبل!!!

اعتقد فلسطينيون كثيرون أن حقيقة الأشياء تكمن في الصفات التي تُعزى إليها، وأوغلوا في تمييز ما هو فلسطيني، أو كان كذلك، من غيره: البرتقال هو برتقال يافا، "الحبة كبيرة حلوة كالعسل وكان الكيس بشلن"، والزيتون هو زيتون الجليل، والعنب هو عنب الخليل، والثمار الحقيقية هي من نابلس. أحالت الثمار على المكان، وأحال المكان على ما يريده الغريب الفلسطيني، وغدا المكان وثماره عنصرَين ضرورين تستدفئ بهما الذاكرة في بلاد الغربة.

تعودت اللغة الفلسطينية، في طور منها، على مبدأ "الإضافة"، حيث في الشيء الموصوف ما يميزه من غيره ويضمن فرادته: أصبحت القدس في رواية جبرا "السفينة"، "أجمل مدينة في الدنيا،

وصارت طبرية، في مذكرات أنيس صايغ، "عاصمة العواصم"، وأكد أنيس ذاته كطبراني أصيل: "أنا طبراني قحّ، لا شبهة فيه." وحين مرّ الراحل الجميل شفيق الحوت، في مذكراته على يافا، أخذت الأخيرة ملامح روضة غسلها المطر، بمنازلها وشوارعها وساحاتها وصباحاتها المضيئة.

وبقدر ما اعتقد الفلسطينيون، كغيرهم من المضطهدين على أي حال، أن صفات الأشياء تنوب عنها، وأن الصفات تعيد خلق الأشياء، اعتقدوا، بدورهم، أن حضور فلسطين في اللغة اليومية يجعلها قريبة ـ أو في متناول اليد ـ فوضعوا فلسطين في أيمانهم، بأشكال عفوية جرت مجرى العادة، كأن يقسموا "بحياة الشهداء": "وحياة دم عبد القادر"، كان ذلك بعد النكبة مباشرة، ولم يكن قد مضى على استشهاد عبد القادر الحسيني إلاّ زمن قصير، أو أن يقول عجوز حزين بعد زمن: "وروح شهدا تل الزعتر"، في إشارة إلى مخيم عاثر الحظ تقاطعت فيه نيران متعددة الجنسيات، إلى أن نصل إلى جملة غريبة: "وحياة غربتنا"، كما لو أن الغربة مقدس لا يجوز نسيانه، وصولاً إلى قسم حزين وسعيد معاً: "وحياة عودتنا"، تلك العودة العزيزة التي قد تأتي بعد حين.

عاش الفلسطينيون مع مفارقة سكنت أقدارهم، منذ أن احتل وطنهم غرباء عنه، ومنذ أن أصبحوا بلا وطن، إلى أن غدت العودة المنتظرة جزءاً من حاضرهم اليومي، يحلفون بها كموضوع مقدس ثمنه تضحيات كبيرة. غدت المفارقة الحاكم الأكبر لحياتهم، فهم يقاتلون من أجل عودة لا تتحقق، ويستأنفون القتال معتصمين برهان جديد. شيء قريب من أسطورة سيزيف التي سردت عقاباً لا نهاية له، مع فارق جوهري: العقاب هنا يقع على شعب لا على أفراد، والمعاقب الفلسطيني ليس مسلوب الإرادة، بل إنه ينصاع إلى تعبه وصبره وأمله، لا إلى إرادة المحتل الصهيوني.

مضى زمن التذكر بعد أن أصبح المنفى، كما الحصار، أمراً فلسطينياً يومياً يتلازم معه المتخيل الذي يستعجل العودة ويدرجها في علاقات النهار. تتجسد العودة في تمثيلات متخيلة، وخصوصاً في الحقل الروائي، وهي ذات قوة تعويضية حال الأسرة التي تجتمع على عشاء، بعد غارة، كما في رواية رضوى عاشور "الطنطورية"، والخال الطيب الذي يعود إلى أبناء أخته، بعد معركة، مثلما جاء في رواية يحيى يخلف "تفاح المجانين".

بقيت المأساة تدور بين عودة مقاتلة، مجالها الاحتمال المشبع بالتخييل، وعودة تبشيرية تفصل الحدود بين الحاضر والمستقبل، وترتاح إلى قوة الخير. بقي، في الحالين، الحلم الذي لا يقوم الوجود الفلسطيني من دونه، يتطلع إلى زمن موحد يستأنف فيه حاضره ماضيه.

إيضاح: الواقعي والمتخيل والوهم في الرواية الفلسطينية

شكلّت الرواية، في شكلها التحريضي، المجال الأكثر مواءمة لتحقيق "عودة رَغَبية" مقتصدة التكاليف لا تميّز، دائماً، بين الوهم والمتخيل.

إذا كانت الرواية، تعريفاً، تعكس الواقع مضافاً إليه شيء ما، أي البناء الفني واللغة، فإن الفلسطينيين اختصروا روايتهم التحريضية، كما خطابهم التحريضي عامة، بـ "رغبة ذهنية"

أضيف إليها شيء ما، يتمثل في حكايات الانتصار، الأمر الذي يجعل "الفدائي" ينتصر قبل الذهاب إلى المعركة، ويصيّر العودة "رحلة داخلية". بل يمكن القول إن روايتهم ركنت إلى "فائض المتخيل" لتعبث بالمتخيل، وتتصرف بفائض مكبوت يلبّي الرغبة والحنين، ولا يمسّ الواقع إلاّ قليلاً، ويتعامل، ضمناً، مع عودة مستحيلة.

خلق جبرا إبراهيم جبرا، متكِئاً على رومانسية دينية خاصة به، بطلاً وهمياً يعود إلى فلسطين سالماً في جميع الأزمنة. فالفلسطيني في نهاية رواية "السفينة" يتهيأ مرتاحاً للعودة إلى الوطن، من دون أن يطرح أسئلة عن الاحتلال وآثاره. أمّا وليد مسعود، في الرواية التي تحمل اسمه، فكان يعود إلى القدس منجذباً إلى مدينة مقدسة لا تتخلى عن ابنها. ولعل المقدّس الموزع على الطرفين هو ما جعل الروائي يطمئن إلى زمنه الرومانسي الذي يمحو المسافة بين الأزمنة الثلاثة، مؤكداً الماضي مستقبلاً والمستقبل ماضياً، ويوزّع الحاضر على ما جاء وما سيجيء. بل إن في تصوّر جبرا، المحتفل بالماضي دائماً، ما يهوّن من شأن الحاضر، لأنه يمزّق علاقة المستقبل بماضيه.

لم يكن في إيمانية جبرا، التي تعيّن القدس مركزاً للوجود، ما يسمح بمتخيل روائي ينفتح على احتمالات متعددة، ويبتعد عن يقين إيماني يكتفي بثنائيات لا تصالح بينها، ويعيّن الفلسطيني المقدسي بطلاً لا يحاكى. يتحول الفلسطيني، كما العودة، إلى علاقات روحية ثابتة، فلا قلق ولا اغتراب، ذلك بأن الروائي استعاض عن الواقع بإيمان واسع أوكل إليه أن "يضمن" العودة الأكيدة، وأن يرشد الفلسطيني في رحلته "الروحية" المغلقة.

انطوى منظور جبرا على متخيل إيماني يعتبر العودة معطى بديهياً، مطمئناً إلى ضمان إلهي ينصر الفلسطيني وأرضه، ويستولد، تالياً، فلسطينياً لا ينقصه الكمال.. اختلطت الحدود في هذا المنظور، والتبس التخيل بالوهم، والرواية بالحكاية القديمة التي تتحدث عن هزيمة الشر أمام الخير.

كان لغسان كنفاني، الذي أراد رواية واقعية "مئة بالمئة"، مثلما قال، منظور مختلف زاد في اختلافه قلقه، وانتقاله من صيغة كتابية إلى أُخرى. ارتاح إلى متخيل رومانسي في روايته الجميلة غير المنجزة "العاشق"، حيث الأرض تحمي أصحابها، فهي عاقلة، كالفلسطيني الذي هو أرض ناطقة أُخرى. غير أنه حين ابتعد عن الماضي الذي تتصادى فيه ثورة ١٩٣٦، ووصل إلى الحاضر في روايته "عائد إلى حيفا"، ارتبك وكان عليه أن يبحث عن ضمان آخر يفتح باب الانتصار. عثر على ضمانه، الموقت، في إنسان يخلق ذاته ويكون مسؤولاً عنها، إنسان ذاتي المرجع، إن صح القول، يتكىء على إرادة تقوده إلى حيث يشاء. وضاعف الضمان، في الرواية ذاتها، بمحاكاة الصهيوني المنتصر. فمثلما أن الصهوني اعتمد على القتال المسلح والاستعداد للتضحية، وانتصر، فإن على الفلسطيني أن يحاكيه، ذلك بـ "أن المدن لا تَفتح إلاّ من جهة واحدة"، وأن العودة رهن بالفلسطيني "الجديد" الذي يتعلم من عدوه المقاتل، وأن الوطن "ليس حفنة من الذكريات"، فهو يحتاج إلى أكثر من معركة.

لم يهجس غسان بعودة روحية، مثل جبرا، تبدأ وتنتهي داخل الروح. أراد عودة أُخرى،

وعثر عليها في فلسطيني منشود يجمع بين المعرفة والإرادة، وبين تجربته الذاتية وتجربة عدوه. كان خطابه صادقاً ومسكوناً بإرادة مقاتلة تؤمن بأن العودة تُصنع ولا تُعطى. وإذا كان الواقعي في خطاب غسان الروائي جاء من الاعتراف بالآخر الصهيوني، والتعرف إليه، ومحاولة محاكاته، فإن الوهمي تسلل إليه من الرغبة في صناعة المقاتل الفلسطيني وعودته، وصولاً إلى "صناعة المتخيل" الذي لا يمكن صنعه، لأن في زمن المتخيل المفتوح على احتمالات متعددة، ما يغاير "الزمن الصناعي" السائر في اتجاه وحيد.

ومع أن منظور غسان كان بعيداً عن المتخيل الديني الذي يحقق "عودة مظفرة" اشتاق إليها جبرا ومات في المنفى من دون أن يحققها، فقد كان له ضمانه الخاص به الساعي لـ "صناعة المصير"، تلك الصناعة الغريبة التي تختصر التاريخ في إرادة إنسان متمرد يضجره التاريخ. كان لغسان إيمانية تفصل بين القائم والواجب الوجود، وكان له ضمانه الإيماني الحالم بإنسان لا يخيب. لكنه كان يدرك، وهو القلِق السائر من جواب إلى سؤال يحاصره، أن الإنسان لا يتحرر من التاريخ، ولا من السياق والإرث اللذين يلازمانه، وأن في مفاجآت الحياة ما يتجاوز "الضمان" الذي هو مبدأ ديني في التحديد الأخير.. لهذا ترك "أعمالاً ناقصة"، إلى أن قتلته الاستخبارات الصهيونية، محققاً ما قال به: "الإنسان الذي فاته اختيار ميلاده، يستطيع أن يختار موته."

السياق الذي كتب فيه جبرا وغسان يلمّح إلى عودة مرغوب فيها أو محتملة، ويعطي "متخيلاً مقيداً" يذهب إلى فلسطين ويعود منها. جاء بعد السياق الواعد حاضر مهزوم، يتيح التسجيل لا التخييل، ويختصر الأزمنة إلى ما كان، ويقترح "عودة مستعارة". كتب ربعي المدهون روايته "مصائر" راسماً "عودة فلسطيني" يحمل جواز سفر بريطانياً، وجاراه في العودة سليم البيك في روايته المتميزة "تذكرتان إلى صفورية"، حيث العائد المعذب يحمل جوازاً فرنسياً.

جاء زمن التسجيل لا التخييل، بعد شتات يتبعه شتات، والوقوف أمام عودة مستحيلة. تُرجم تداعي الزمن الفلسطيني ذاته، بشكل غير مباشر، في عودة يحيى يخلف، في "راكب الريح" إلى يافا في القرن الثامن عشر، حيث في الماضي الفسيح ما يقبل بعودة "بطل إيجابي" لا يلائم الحاضر المهزوم. ربما كان في تحولات الزمن الفلسطيني، البعيدة عن التفاؤل والتشاؤم معاً، ما يلزم باجتهاد روائي متعدد المستويات، جسّده إلياس خوري في عمله الكبير "أولاد الغيتو"، حيث الأفكار في صور، والصور أفكار تتجاوز التخيل والتسجيل، والصور والأفكار لا تحتملان التشاؤم أو التفاؤل.

المتخيل حرية تتجاوز الأمكنة والأزمنة، وفيه اختيار لا ينصاع إلى إرادة المتخيل. ربما كان في القدر الفلسطيني، المحاصر من جميع الجهات، ما يقمع المتخيل الرحيب، ويحرّض على شعار يعبّر عن روح الإنسان المحاصر، لا عن "الموضوعية".

عاش الفلسطينيون الحالمون بالعودة، من النكبة إلى اليوم، دورة واسعة احتشد فيها المتخيل والوهم والوجع والفرح ومقاومة مستمرة تاخمت حدود المعجزة. ■